مقدمـــــة

عندما قامت ثورة يوليو كنت - مثل غيرى - أمضى عطلة الصيـــف التـــى تلـــت نجاحنا فى الصف الأول الثانوى (النظام القديم، حيث كانت التعليـــم الثـــانوى خمـــس سنوات)، ولا أستطيع أن أصف للقارئ مشاعر الفرح والغبطة التى ملأت كل جوانحى، ذلك أن الله عز وجل كان قد أتاح لى فرصة المتابعة المستمرة لفيضان الحركة الوطنيـة وخاصة منذ بداية حكومة الوفد فى ١٩٥٠، وهذا الكم المذهل من الصحف والمجـــلات متباينة الاتجاهات التى كانت تصدر فى عهد الوفد مما لم أر له مثيـــلا حتـــى اليـــوم، وخاصة فى مدى حرية التعبير التى كانت متاحة، وكان علـــى رأس هـــذه الصحـــف صحف مصر الفتاة التى ما أن تصادر صحيفة، حتى تظهر أخرى بدلا منها، ثم يحكـــم مجلس الدولة بعودة الصحيفة المصادرة، فتتكاثر صحف مصر الفتاة، بكل مـــا كـــانت تحمله من موضوعات ساخنة وأسلوب حاد فى النقـــد، وكـــانت هكـــذا أيضـــا مجلـــة روز اليوسف.

وازداد الموقف اشتعالا بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى أكتوبر ١٩٥١، وما ترتب عليـــها من حركة مقاومة للاحتلال الإنجليزى فى منطقة قناة السويس، لتبلغ المأساة ذروتها فى معركة الشرطة بالإسماعيلية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢، ثم حريق القاهرة فـــى ٢٦ يوليـــو، وبعد هذا يجثم على صدر البلاد عهد كئيب زاد الأمر سوءا، وإن عجل بقيام الثورة.

كل هذه الأحداث وغيرها جعلت القضية الوطنية محور حياتنا، مع صغـــر ســـننا، وجعلت الهم العام بؤرة التفكير، وصار الحلم الكبير لا يكف عن مداعبة عقولنا وقلوبنـــا بأن تتخلص مصر من كابوس الاحتلال ومراكز الفساد الداخلى، وتصبح قوة تســـتحقها بحكم مكانتها.

وعندما قامت الثورة كانت آذاننا لا تكاد تفارق الراديو إلا قليلا، وكانت المارشـــات العسكرية تدق على قلوبنا بالفرح والسعادة، حيث يصدر بين حين وآخر من القـــرارات ما كان يجسد العديد من الأمانى التى تطالما حلمنا بها، وتتدفق الأغانى والأناشيد فنزداد فرحا وكأننا نريد أن نطير فى السماء سرورا وبهجة.

وحتى عندما اندلعت أزمة مارس ١٩٥٤، كانت مشاعرى مع ضباط الثورة وسعدت عندما تقرر أن تبقى الثورة.

لكن الحق أقول، أننى بدأت أشعر ببعض ضيق عقب ما كان يتـــم مـــن اعتقـــالات ومحاكمات للإخوان المسلمين، فقد كنت أعرف بعض الطلاب من الزملاء والمعـــارف

يعتقلون ويعذبون، وهذه المحاكمات المحزنة التى كانت تجرى فى محكمة يرأسها ضابط يكاد أن يكون مختلا هو جمال سالم والذى وصلت به الجرأة أن يطلب من واحد ممن حوكموا بأن يقرأ سورة الفاتحة بالمقلوب !!

لكن الحال تغير عند تأميم قناة السويس .. عاد حب الثورة إلى قلبى، والتحمس لها والإيمان بزعيمها، حتى لقد هرعت إلى ميدان باب الحديد (رمسيس) حال عودة الزعيم من الإسكندرية لكى أحظى برؤيته، وما زالت صورته ماثلة أمام عينى حتى الآن وهو محمول على أكتاف الجماهير الحاشدة، حيث لم يكن هناك موطئ لقدم وهو بالبدلة ذات اللون الرمادى.

وطوال الفترة وأنا عاشق للثورة ولزعيمها، وإن لم يخل الأمر من حين لآخر من بعض ضيق بسيط لهذا الموقف أو ذاك.

وحتى الآن، وأنا أكتب هذه المقدمة فى يناير ٢٠٠٣، ما زلت كلما رأيت صورة عبد الناصر على شاشة التلفاز أو سمعت خطبة له، أو نشيدا من أناشيد الثورة، غمرتنى مشاعر كان هذا الرجل قد زرعها فينا وأججها، مشاعر نفتقدها الآن بقوة، مشاعر العزة والكرامة، وأننا لسنا نعالا فى أرجل القوى المهيمنة، حتى ولو جعنا مصداقا للمثل المعروف: تجوع الحرة ولا تأكل بثديها.

وهكذا لم أكن من أى شريحة أو فئة أضيرت من جراء الثورة كى أحمل لها حقا أسود، وفى الوقت نفسه، لم أنل شيئا من مغانمها إلا ما هو فى حدود المغانم القومية العامة.

ومن هنا فقد أقدمت على كتابة هذا الكتاب وأنا أشعر بقدر من الرضا أن لست من حملة مشاعر تضغط على الكاتب فتوجهه هذا الاتجاه أو ذاك.

وكانت عملية اختيار المراجع التى يمكن الرجوع مشكلة حقا ...

فقد تراوح عدد غير قليل منها بين أقصى اليمين، وأقصى اليسار، كتبها نفر لا يرون من الأمور إلا أنها إما أن تكون سوداء أو بيضاء، فنفر يحمل الثورة كل ما عانت مصر منه أو ما تزال تعانى، ونفر آخر يبرئها تماما ويعلو بزعيمها إلى سماء لا يطار لها على جناح ولا يسعى على قدم.

من هنا حاولت أن أستبعد بعض الكتابات، فلم أستند إلى كتاب - مثلا - كتبه واحد أعلم أنه من الإخوان المسلمين، ولا إلى بعض الكتاب الذين يمكن إدخالهم فى زمرة "العاشقين إلى حد الجنون".

ومع ذلك فلا أخفى أن نتيجة قراءاتى قادتنى إلى نتائج وأحكام صدمتنى حقا وجعلتنى أعيد بعض حساباتى فأشعر بأن البعض إذا كان يردد، ردا على نقد الثورة بتورطها فى معارك كثيرة خارجية، بأن قضية التحرير لا تتجزأ، فلابد أن يتسق مع نفس المنطق، وبالتالى فيتأكد أن حرية المواطن لا تقل شأنا أبدا عن حرية الأوطان، وأن الانتصارات الكبرى لثورة يوليو لم تسر بنا إلى ما كنا نرجو لأننا افتقدنا هذا المنطق، بل ويصل الأمر بالبعض، عندما يتطرق الحديث إليها، إلى التهوين من شأنها، مع أنها، فى رأيى الخاص، هى جوهر القضية، أو بمعنى أصح فإن حرية المواطن وحرية الوطن هما وجهان لعملة واحدة، ولنتذكر أن من بين أسباب انهيار الاتحاد السوفيتى، رغم ما حققه من إنجازات مذهلة وصلت به إلى الكواكب الأخرى، كان افتقاد مواطنه لحرية الإرادة وحرية التعبير.. قدرته على أن يقول لا، وهو آمن أنه لن يضار فى عمله أو فى لقمة عيشه أو فى أهله.

وعندما تدور الحياة فى المجتمع حول شخص الزعيم، تتحول عملية التربية إلى دعاية وتلقين، ويشيع نهج الفرض والإملاء، فتفقد العملية التربوية مضمونها الحقيقى، ولا زلت أتذكر طوابير الصباح فى جميع المدارس، يوميا، والتلاميذ يرددون معا وبصوت واحد: ناصر، كلنا بنحبك، ناصر وحنفضل جنبك، ناصر.. فمهما كنا نحبه بالفعل، لكننا نحب مصر أكثر وجموع الأمة أكثر، فلم لم تدر مثل تلك الأناشيد حول مصر الوطن، لا مصر الزعيم؟

لا أريد أن أصادر على حق القارئ فى الاطلاع أولا على الحيثيات المتمثلة فى جملة فصول الكتاب ليخرج بالحكم الذى يهتدى إليه..

ولابد لى وأنا أختم هذه المقدمة من أن أشير إلى مسألة تتصل بالمادة العلمية التى بُنى منها الكتاب، فالكثرة الغالبة منها اعتمدت فيها على مكتبتى الخاصة والحمد لله، لكنى كنت راغبا فى الاطلاع على كم كبير من الصحف التى كانت تصدر خلال الفترة، ولم تكن ظروفى تسمح لى بالاختلاف إلى مصادرها للاطلاع عليها، وهذا ما جعلنى أتوقف بعض الوقت عن الشروع فى تنفيذ كتابة الكتاب.

ثم تذكرت فى الوقت نفسه مشكلة نعانى منها بالنسبة لطلبة الدبلوم الخاص، تخصص تاريخ التربية، فقد جرت العادة على تكليفهم ببعض الموضوعات التى يختارون من بينها لعمل بحث خاص بأعمال السنة، ومع الأسف الشديد كنت ألاحظ الهبوط التدريجى فى مستوى الطلاب، حتى وصل الأمر بى إلى قناعة بأن القيام ببحث بالنسبة إليهم قد أصبح عملية شكلية لا جدوى منها.

هنا بدرت لى فكرة، فلم لا أكلفهم بالمرور بعملية تدريب على كيفية جمع المادة التاريخية وتصنيفها وتحليلها ونقدها، وتكون المادة المختارة هذه المرة خاصة بفترة ثورة يوليو؟

راقت الفكرة لى، وشرعت أشرح للطلاب عناصر المادة المطلوب جمعها، وخاصة من الصحف، حيث الخبر والمقال والتحقيق الصحفى والفرق بين كل منها وأننا نريد المقالات، أما الأخبار والأحداث فلابد فيها من أن نعتمد على المصادر الرسمية من تقارير وقوانين ولوائح وقرارات.

وعندما تلقيت ما جمعه الطلاب، إذا بالكم الأكبر منها إلى درجة لا أبالغ أن أقول أنها لا تقل عن ٩٠% كان مصيره سلة المهملات، لأنها فى كثير من الأحيان تعلقت بتحقيقات صحفية وأخبار، على الرغم من التوضيحات التى قمت بها !

حتى المقالات، كان معظمها ذا تصوير شئ من الصعب قراءته إلا بالكاد.

وبالنسبة للوثائق الرسمية، وجدت أن كثرة منهم قد أتت لى - مثلا - بقرارات وزارية تتعلق بتسمية مدارس، أو الاستيلاء على أرض لإقامة مدرسة، أو الموافقة على سفر إلى الخارج، وما شابه هذه المسائل التى لم تكن تعنينى كثيرا، مما دل على ضعف قدرتهم على التعرف على ما يشكل "حدثا" تاريخيا تعليميا.

على أية حال، فلابد أن أوجه شكرى إلى هذه القلة التى وجدت فى بعض ما جمعت من مادة تاريخية، بعض ما ساعدنى بعض الشئ.

والله ولى التوفيق..

مصر الجديدة فى ٢٨ يناير ٢٠٠٣